لقاء خاصّ بالمطران «المزعج» غريغوار حدّاد

حاوره: سماح إدريس وجاك الأسوَد

ولد نخلة أمين حدّاد عام ١٩٢٤ في سوق الغرب من أب إنجيلي وأم روم كاثوليك. وتلقّى دروسه التكميلية والثانوية، ومن ثم الفلسفة واللاهوت، في الإكليريكية الشرقية (التي كانت تابعة للآباء اليسوعيين) في بيروت. بين العامين ١٩٥١ و١٩٦٥ كان النائب الأسقفي العامّ لأبرشية بيروت للروم الكاثوليك. أسّس بين ١٩٦٠ و١٩٦٧ عدة حركات: «التثقيف الذاتي،» «الحركة الاجتماعية اللبنانية،» «واحة الرجاء»... وبين ١٩٦٨ و١٩٧٥ انتخبه السينودس متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما. عام ١٩٧٥ نشأتْ أزمةٌ بينه وبين البطريرك والسينودس بسبب مقالات في مجلة آفاق **التي كان قد أسّسها مع لجنة رباعية عامَ ١٩٧٤. فترك السينودس سنة ١٩٧٥ وقام بنشاطات اجتماعية مختلفة مثل: «هيئة إنماء قضاء عاليه» و«تجمّع الهيئات الأهلية التطوعية.» أسّس عام ١٩٨٠ التيار العلماني. اعتكف بين ١٩٩٢ و١٩٩٧ في دير للمتوحّدين في فاريا ثم القلوق، وفي بطريركية الروم الكاثوليك ـ الربوة منذ العام ١٩٩٨. اعتُدي عليه بالضرب قبل بضعة أعوام من قِبل أحد الأصوليين «المسيحيين.» وهذا اللقاء أجراه في بيروت الناقدُ الفنّي واللغوي جاك الأسود، ورئيسُ تحرير** الآداب.

العلمنة والدين وحوار الأديان

*** ترى انحرافًا عن النّهج العلماني الشامل في المؤتمرات التي تقدّم الحوارَ الإسلامي ـ المسيحي. هل يَظهر تناقضٌ هنا؟**

أحيانًا يَخْلط النّاسُ بين الحوار الإسلامي ـ المسيحي والعلمانية. الحوار الإسلامي ـ المسيحي نوعٌ من الاهتمام بالدين والتفاعل بين الدينين والتأكيد أنّ الإنسان، من دون دين، يَنْقصه شيء. وأما العلمانية فلا تهتمّ بهذه الأمور كلّها، ولا تحكي عن الدين. ثمّةَ نوعٌ من الاستقلالية التامّة بين ما هو للعالَم (وكلمة «العَلْمانية» مشتقّة من «العالَم») وما هو للأديان. الخلط بين الاثنين أساسٌ لمشاكل عديدة، بما فيها «الديموقراطيةُ التوافقية»: فهذه تبدو وكأنّها تطوُّرٌ في النظام اللبناني نحو العلمانية، بينما هي في الواقع **تشديدٌ** على الطائفية، وقد كرّسها «اتفاقُ الطائف» في الرئاسات الأولى والوظائف الكبرى.

ثمّ إنّ مثل هذا الحوار بين الدّينيْن لم يبدأ بعد. أتذكّر أنّه، سنةَ ١٩٧٦، عُقِدَ مؤتمر في ليبيا وطُلِبَ إليّ أن ألقي كلمة. فقلت إنّه يجب أن تكونَ هناك أمور مشتركة [بين الدينيْن]، سمّيتُها «الجوامعَ المشتركة». **أوّلها** الإيمانُ بأنْ لا إله إلاّ اللّه، و**ثانيها** أنّ هناك أنبياء وأنّ محمّدًا منهم. وقامت القيامة عليّ في لبنان إذ كيف أقول إنّ محمّدًا نبيّ!

*** ماذا يريدون أن تقول؟**

ـ ربّما يريدونني أن أقول إنّه كان رئيسَ ميليشيا إسلاميّة!

*** ولكنْ، ألا يساعد الحوارُ الإسلامي ـ المسيحي، في رأيك، على التّوصلُ إلى العلمنة الشاملة؟**

ـ لا يساعد أبدًا.

*** هل يُضرِ؟**

ـ كذلك لا يُضرِ. الموضوعان مختلفان تمامًا.

*** كيف تحدِّد الموضوعَ الثّاني؟ أهو سياسي؟ اجتماعي؟**

ـ اجتماعي ـ سياسي، إنّه السؤال عن شكل نظام المجتمع: أيحترم الأديانَ من دون أن يكون لها تأثيرٌ فيه، أمْ لا يسأل عنها؟ ثمّة نوعٌ من الحياد التّامّ والموقف اللاّمبالي. تكون علمانيّاً، أمؤمنًا كنت أمْ ملحدًا أمْ لاأدريّاً. وهذا مهمٌّ جداً.

*** تقول أنا مؤمن بالله ولذلك أنا علماني.**

ـ هذا أنا.

*** ولكنْ، في مكانٍ آخر، تقول ما معناه أنّ العلمانية تحتضن المؤمنَ واللاّأدريَّ والملحدَ.**

ـ أنا واحد من هؤلاء: المؤمن! مثلُ هذا القول لا يعني أنّ الموقف يجب أن يعمَّم، وإنّما هو موقفٌ شخصيّ. يسألني كثيرون كيف يمكن أن أكون مطرانًا وعلمانيّاً في وقتٍ واحد. يظنّون أنّ ثمّةَ تناقضًا بين الاثنين. وأنا أقول لهم، في موقفي هذا، إنّه لا وجود

العلمانية ليست فقدانَ القيم، بل التشديدُ على إنسانيّتها بلا مرجعيةٍ دينية.

للتناقض في أيّ حالٍ من الأحوال. لا بدّ من التمييز بين موضوعَي الإيمان والعلمانية حتى لا نخلطَ شعبانَ برمضان.

*** يُستخلص من ذلك أنّ اللاّأدريّ أو الملحد يمكن أن يساهم في بناء العلمانية الشاملة.**

ـ لكنّ هذا لا يعطيه امتيازًا. فلا يكون الإنسانُ أكثرَ علمانيةً لأنّه ملحدٌ أو مؤمن.

*** اللافت في هذا الموقف هو استنتاجُ العلمانية من الإيمان.**

ـ هذا موقفي الشخصي.

*** ولكنّك تقول «لذلك.» تقول أنا مؤمن بالله، ولذلك أنا علماني.**

ـ أنا مؤمن لأنّ المسيحية، في صلب مفهومها، بالنسبة إليّ أنا، هي: كلُّ النّاس متساوون مهما كان إيمانُهم. لا أَحْكم على المسلم أو الملحد انطلاقًا من كوني مسيحيّاً. أنا أحترم الجميع من دون أن أستثني الملحدين واللاّأدريّين. وهذا موقف متطوّرٌ على صعيد الإيمان الإنساني. كثيرون يفكّرون أنّ دينهم هو الدّين الحقّ، وأنّ الأديان الأخرى لا تساوي شيئًا. كلُّ هذا غلطٌ بغلط. وبلادنا مؤسَّسةٌ على مثل هذه الأشياء.

*** وفي مكانٍ آخر تغوص أكثر في هذا الاتّجاه: «كلّما أصبح المسيحيون مؤمنين بالإنجيل حقّاً، والمسلمون مؤمنين بالقرآن حقّاً، أصبحوا قادرين على تكوين وطنٍ علمانيٍّ حقّاً.» أوَيُمْكن أيضًا أن نقول: «كلّما أصبح الملحدون ملحدين حقّاً واللاّأدريّون لاأدريّين حقّاً...» أمْ كلامُكَ يعني المؤمنين فقط؟**

ـ أقصد المؤمنين إيمانًا حقيقيّاً، لأنّ الإيمان الحقيقي لا يلغي أيّاً من الإيمانات الأخرى. جاء في القرآن: ﴿مَنْ شاء فليؤْمِنْ ومَنْ شاء فليَكْفر﴾. يمكن أن تستمدَّ من القرآن إمكانَ أن تكون ملحدًا وتَبْني مجتمعًا مع غيرك من النّاس. هذه التمييزات مهمّة جدّاً جدّاً. الخلطُ بين المفاهيم يورِّط اللبنانيين في أمورٍ كثيرة بلا طائل. ثمّة انتقادٌ متبادلٌ، اليومَ، بين السّنة والشيعة، حول ما يجري عندنا في عاشوراء. كيف يُعْقَلُ أن نبنيَ وطنًا ما زالت القيمُ والمؤسّساتُ فيه تابعةً لمرجعيّاتٍ وزعماء يستعيدون أيّامَ الوليد ويزيد ومعاوية والحسن والحسين، وكأنّهم ما زالوا عائشين بيننا يخوضون معاركَ ماضٍ عمرُه أكثرُ من ألفٍ وثلاثمئة سنة؟!

*** وموضوعُ صلب المسيح؟**

ـ كذلك الأمر، أيضًا وأيضًا...

*** لماذا، بعد عقودٍ من النّضال في سبيل العلمانية الشاملة، ما زلنا لا نَعْرف العلمانية؟ لقد سبق أن شبَّهتَ معرفتَنا الجزئيةَ بها بتلمّسات العميان الذين يحاولون معرفةَ الفيل وكلٌّ منهم يحكي عن حيوانٍ مختلفٍ تبعًا للجزء الّذي تحسّسه منه! أيعود ذلك إلى ضعفٍ في تفكيرنا ومعرفتنا، أمْ إلى نوعٍ من التّجهيل المقصود؟**

ـ العلمانية بحدّ ذاتها تشمل قيَمًا مختلفةً كثيرة. ومَنْ يتوقّف عند إحدى هذه القيَم يتبيّن له تحديدٌ معيّنٌ للعلمانية، ومَنْ يتوقّف عند غيرها يتبيّن له تحديدٌ آخر. غنى المفهوم سببٌ من أسباب الاختلاف في الرّأي تجاه العلمانية. انظرْ كيف تطبَّق العلمانيةُ حاليّاً في فرنسة والمملكة المتّحدة والولايات المتّحدة... يقول الأميركيون إنّهم علمانيون مئةً في المئة بينما يؤسِّس بوش العالم كلَّه على المسيحية النيوبورن! كيف يكون بوش علمانيّاً وفي الوقت نفسه لا يَقْبل إلاّ المسيحيةَ البروتستانتيةَ النيوبورن، وكلّ مَنْ تبقّى من المسيحيين غلطٌ بغلط؟ هنا يتبيّن مزجٌ بين الدّين والمجتمع، وهو أصلُ الشّرور كلّها.

*** وكيف نخلّص العلمانيةَ من هذه الشّرور؟**

ـ حين نَقبل بالآخر كما هو، ونُؤسّس مجتمعًا يَقْبل فيه الكلُّ بمبادئَ وقيمٍ ومؤسّساتٍ لا تلغي أحدًا.

العلمانية والسلطة الدينية والزمنية

*** العلمانية المُدْخَلة فوقيّاً عبر القوانين أو الدّستور هي سببُ تضخّم الحساسيات الطائفية في بعض البلدان (في فرنسة وتركية، مثلاً، وتحت البَعْثَين)، كتعبيرٍ عن الكبت. وأما في بلدانٍ أخرى، فيبدو تطبيقُ القيم اللاطائفية طبيعيّاً وكأنّه لا يحتاج إلى قانون.**

ـ كلُّ هذا يرجع إلى الأمر نفسه. يجب أن يكون المجتمع قائمًا على مبادئ، أساسُها الاعترافُ بالإنسان قيمةً مطلقة، أيّاً كان موقفُكَ من الدّين أو الإلحاد. ولأنّه قيمةٌ مطلقة، فعلى المجتمع أن ينظِّم نفسَه على أساس أن يكون من **أجل كلّ إنسان وكلّ الإنسان**. أيْ لا إلغاء لأحدٍ ولا إلغاء لأيّة قيمةٍ إنسانية، أجسمانيةً كانت أمْ فكريةً أمْ روحية. العلمانية ليست فقدانَ القيم، بل التّشديدُ على إنسانيتها بلا مرجعيةٍ دينية.

*** كنتَ، في زمن الحرب، ضدّ السلطة اللبنانية، السياسية والحزبية والعسكرية. فأنتم، في «تيّار المجتمع المدنيّ،» تَعدّون زعماءَ لبنان الطائفيين، على هذه المستويات جميعًا، مستندين إلى زعامةٍ غيرِ شرعية لكون مبرِّراتها تستند، وهمًا وضلالاً، إلى تمثيل المسيحية وتمثيل الإسلام. وقد عَبّرتَ صراحةً عن لاشرعية السلطة اللبنانية بالقول إنّها تستند إلى «شريعة الغاب،» رغم ادّعائها الاستنادَ إلى الدّستور والميثاق الوطني والأعراف والقوانين. فهل تقترح دستورًا جديدًا أو ميثاقًا وطنيّاً جديدًا غيرَ قائمٍ على التمثيل الطائفي؟ وما ستكون عناوينُه العريضة؟**

ـ العنوان الأكبر هو الإنسان كقيمةٍ مطلقة. يجب أن نضع نصْبَ أعيننا دائمًا تنميةَ الإنسان الفرد بكلّ المكوّنات الّتي تجعل منه إنسانًا بالفعل. قد نكتشف في الإنسان قيمًا مختلفةً في بلدٍ مختلف، فإذًا يجوز أن تَدْخل النّسبيّةُ في القيم الّتي تجعل من الإنسان إنسانًا. وهنا يجب أن يظلّ الحوارُ مفتوحًا، فلا يلغي أحدٌ الآخرَ حتّى على صعيد العلمنة، وإلاّ صارتِ العلمنة دينًا جديدًا يلغي الآخرين، وما هذا من العلمانية في شيء. بل يمكن أن يصل بنا الأمرُ إلى نوعٍ من الدكتاتورية الفكرية النازية أو الفاشية.

*** ما هو دورُ السلطات الدينية في الدولة والمجتمع المنشوديْن؟ وما سيكون دورُ الدين فيهما؟ لقد شدّدتَ على أنّ الدين لا سلطةَ له على أساس أنّ المسيح قال: «لا تَدْعوا لكم على الأرض سيّدًا ولا أبًا ولا معلّمًا، فكلّكم أُخوةٌ،» وعلى أساس قول القرآن مخاطبًا محمّدًا: ﴿لستَ عليهم بمسيطرٍ﴾ وكذلك: ﴿إنّا أرسلناكَ شاهدًا ومبشِّرًا ورسولاً﴾. وفي رسالةٍ وجّهتَها إلى ميشال عون وسمير جعجع بعد حرب الإلغاء (ولم تنشرْها أيّةُ جريدة) جَهَرْتَ بأنّ المجتمع المسيحي نقيضٌ للمسيحية، لأنّ «مملكة المسيح ليست من هذا العالَم.» فما هي مقوّمات السلطة العلمانية اللاعنفية؟ وهل يمكن أن تجتمع السلطةُ واللاعنف؟ أليسَ مفهومُ السلطة ذاته قائمًا على درجةٍ ما من العنف؟**

ـ لقد أجاب غاندي عن ذلك حين كوّن مجتمعًا يضمّ الملايين من البشر دونما مرجعية فكرية دينية. كان غاندي يرفض تقسيمَ المجتمع الهندي طبقاتٍ مغلقةً، منها طبقةُ المنبوذين. آمن بالهندوسية، واحترم الإسلامَ والمسيحيةَ في الوقت نفسه. يمكن، إذًا، أن تبنيَ مجتمعًا تكون قيمُه إنسانيةً ونابعةً من متطلّباته الخاصّة في الوقت نفسه. لكلّ بلدٍ إمكاناتُه الّتي تجعله قادرًا على إعطاء الإنسان كرامتَه وحريته.

*** ولكنْ ثمة اليومَ حركةٌ واسعةٌ لمقاومة الاستعمار والهيمنة والعولمة، مع مفاهيم استشهادية. لماذا علينا دائمًا أن نحدِّدَ كيفيةَ مقاومة الظّلم بناءً على نموذجٍ واحدٍ، مثل غاندي في الهند ومارتن لوثر كنغ في الولايات المتّحدة؟ لماذا لا نحترم تجاربَ جديدةً مثلَ الانتفاضة في فلسطين والمقاومة في الجنوب اللبناني؟ ألا يمكن أن أكون مقاتلاً وعلمانيّاً في الوقت نفسه؟**

ـ عندئذٍ لا تكون إنسانيّاً. حين يمكنك أن تقتل الآخرَ لأنّه ليس معك أو، كما في انتفاضة الفلسطينيين الأولى، حين تَضْرب إنسانًا بحجر...

*** أنت ضدّ انتفاضة الحجر أيضًا؟!**

ـ نعم، لأنّ ثمّة عدم احترام للإنسان كقيمة. فالإنسان قيمةٌ مطلقة. كلُّ ما يمسّ به، كلُّ شيءٍ ينال من قيم المساواة والعدالة والحرية والتضامن، ينال من مطلقيّة الإنسان.

حين نُجري دراسةً على مدى تأثير العُنف في تطوُّر العالَم، نكتشف أنّه قلّما حدث تطويرٌ ذو شأنٍ بوساطة العنف. يمكنُ أن تَنتُجَ منه توعيةٌ، إشارةٌ، لفتُ انتباهٍ إلى بعض الأمور المَنْسيّة. مثلاً: الكيان الفلسطيني الذي كان مهمَلاً، لا يحظى بأيِّ اهتمام، جاءتِ انتفاضةُ الحجارة وأثّرَتْ في وعي الناس له، فازداد مؤيّدو الفلسطينيين، وصار هناك مئة وأربعةُ بلدانٍ مع

الأولوية في لبنان هي لقانونٍ انتخابي يُلْغي كلَّ مَنْ يترشّح إلاّ من قبل أحزابٍ لاطائفية.

القضية الفلسطينية. كلُّ القيم الإنسانية موجودةٌ في هذا المجتمَع الفلسطيني، وهي قيمٌ لا تلغي الإسرائيليين، وقد تساهم في إقامة بلدٍ مشترك، فيه المسلمُ والمسيحي واليهودي، المؤمنُ وغيرُ المؤمن. إنّنا نسعى إلى أمورٍ يمكن أن يصل إليها العالمُ ذاتَ يومٍ، كلاً على طريقته.

*** ولكنْ سبق أن تكلّمتَ على تحرير فلسطين. بل إنّك تطالب بإزالة الكيان الإسرائيلي. كيف يمكن التّعايشُ بين الكيانين الإسرائيلي والفلسطيني؟**

ـ كلاّ! ليس هذا هو المقصود، بل التّعايشُ بين اليهود والمسيحيين والمؤمنين وغيرِ المؤمنين، أي العلمانية الشاملة.

العلمنة والعروبة والعولمة

*** في بحثك القيّم «العروبة والإسلام» تَخْتم بضرورة التمييز (لا الفصل) بين المفهومين، وذلك لاعتباراتٍ تعريفية وتاريخية، ولمصلحة الحاضر والمجتمع المدني. وتشدِّد على أنّ العروبة والوحدة العربية هدفٌ للعرب. أعَلى العروبة أن تمشيَ جنبًا إلى جنبٍ مع العلمنة من أجل وطنٍ قويٍّ وعادل؟ وإذا قصرنا الكلامَ على لبنان، ألا ترى أنّ شرط وحدة اللبنانيين وكرامتهم وقوّتهم مرتبطٌ بضرورة اعتبار كيانهم جزءًا لا يتجزّأ من الأمة العربية؟ ألا ترى أيضًا أنّ على مطلب العلمنة أن يُقرَنَ بمطلب عروبةٍ متجدّدة، أيْ بمطلب تعريفٍ جديدٍ للعروبة قائمٍ على الحرية والانفتاح والديموقراطية؟**

ـ هل العروبة ضرورةٌ لعالَم اليَوْم؟ وهل العولمة إلغاءٌ للعروبة أو لأيّة قوميةٍ بحدّ ذاتها؟ سؤالان جديدان. فلنرجعْ إلى القيمة الأساسية للإنسان. بالعولمة الإيجابية الصحيحة، من دون سلبيّاتها، نتخطّى العالَم ـ الكلّ والعالمَ ـ اليوم.

*** هذه هي العولمة البديلة أو العولمة الإنسانية...**

ـ إنّها تعني أن يكون الإنسان مُواطِنَ العالم بأَسْره. (Citoyen du monde). أحلام... كلام... يقول لي الكثيرون: «تحكي هكذا لأنّك مطران.» وهذا ليس بصحيح. بل أقوله لأنّيَ إنسانٌ وأؤمن بالإنسان. ثمّة شغلٌ كثيرٌ على الإسلام كإسلام، لاكتشاف القيم **الإنسانية** في القرآن، ونقدِ الانحرافات نقدًا جذريّاً. مثلاً: الآية الآنفة الذّكر ﴿لستَ عليهم بمسيطرٍ﴾. تلغي كلَّ جدلٍ حول الخلافة من الراشدين إلى الأمويين والعبّاسيين وحول طلَبِ إرجاعها. كلّ هذا ضدّ القرآن!

*** ولكن هذا نصٌّ من نصوص عدّة...**

ـ لهذا السّبب يجب أن نعرف لماذا هناك نصٌّ واحدٌ مختلفٌ عن باقي النّصوص. فقد طُلِبَ، تاريخيّاً، من محمّد أن يفعل أشياء [محدّدة]... وليس صحيحًا أنّ الإسلامَ **لكلّ** عصرٍ **ولكلّ** مصر، بل هذا صحيحٌ فقط إذا أخذتَ منه الفكرَ الجذري القيمي الإنساني.

*** أنتَ ضدّ الإيديولوجيات الّتي تلغي الإنسانَ. تتكلّم على «الحياد الإيجابي تجاه الأديان والإيديولوجيات،» ولكنّ كلامك إيديولوجيٌّ جداً في عصرِ شتْمِ الإيديولوجيات. فأنت تحكي عن العروبة، عن تحرير فلسطين، عن العلمنة... كلّ هذا إيديولوجيّ.**

ـ ولكنْ يجب أن تكون الإيديولوجيةُ مربوطةً دائمًا بقيمة الإنسان. حين تكون عندك هذه المرجعيةُ الثّابتة فإنّك لا تحيد عن الفكر الأساسيّ. والإنسانُ غالبًا ما ينسى ذلك. يجب أن تُبقي في ذهنك المبادئَ الأوّلية الّتي تؤسِّس عليها.

العلمانية في التطبيق

*** تقول إنّ الفهم الجزئيَّ للعلمانية يُضرّ كثيرًا بها. ولكنْ، في آخر كتابك عن الطائفية، تَفترض أنّنا يمكن أن نعمل على تطبيقٍ تدريجيّ، مرحليّ للعلمنة، على ألاّ يصير التّطبيقُ جزئيّاً ولأغراضٍ مخطئةٍ (من الخطإ) أو خاطئةٍ (من الخطيئة) كما تحبّ أن تميِّز. أتؤمن بطرحٍ تزامنيٍّ للقضايا الشّائكة من أجل التّوصُّل إلى العلمنة الشاملة، أمْ ثمّة أولويّات؟ أنبدأ، مثلاً، بالمطالبة بقانونٍ انتخابيٍّ مركّب، أمْ نبدأ قبل ذلك، أو بالتوازي معه، بقانونٍ مدنيٍّ اختياريٍّ للأحوال الشخصية؟ أمْ بتنظيم حواراتٍ شبابية؟ أمْ بطرحِ قانونٍ لإصلاح الإعلام الطّائفي الحالي؟ وقد أعلنتَ رفضَكَ**

لأن يصبح العلمانيون طائفةً داخل التّركيبة الطّائفية الحالية. ولكنْ، إذا تمّ لهم أن يَنْتَخِبوا ويُنْتَخَبوا على أساس علمانيتهم، للوصول تدرُّجًا إلى العلمنة الشّاملة، فهل يُعَدُّ ذلك تكريسًا للطائفية؟

ـ حين تؤكّد أنّ مبدأك الأوّلَ والآخِرَ هو القيمُ الأساسية الّتي لا تحيد عنها أبدًا، وأنّه لا يمكن تطبيقُها الآن، وتؤكّد أيضًا أنّه يمكن التأسيسُ على مراحل من دون أن تنسى أنّها مراحلُ **غيرُ نهائية**، فإنّه يجوز لك استعمال المرحلية. ولكنْ إذا قلتَ، من الأساس، إنّنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا، فلنقبلْ إذنْ بالواقع كما هو، فهذا غلطٌ كبير. يجب أن تؤكِّدَ منذ البداية أنّ المرحلةَ التي أنت فيها ليست هي النهائية، وأنّك يجب أن تتدرّجَ منها إلى حلولٍ تقرِّبك من الحلّ النّهائي، من قبيل: ألاّ نكوِّنَ طائفةً جديدةً، وألاّ نقسّمَ مرشّحينا على أساس طوائفهم. يجب أن تقول من الأساس إنّ على الترشيح أن يكون لاطائفيّاً، بمعنى أن تقوم بالترشيح أحزابٌ لاطائفيةٌ، لا أن يجيء المرشَّحون من قِبَلِ الطوائف والأديان. إذا توصّلنا إلى ذلك يومًا، فسنكون قد قمنا بخطوةٍ كبيرةٍ إلى الأمام. مثلاً: أن يقدِّمَ حزبُ الله مرشّحيه لأنّ عندهم مفهومًا معيَّنًا **للمجتمع اللبناني** لا لأنّه يريد استكمالَ عدد الشّيعة في البرلمان اللبناني.

*** لكنّ الحزب المذكور يرشّح مسيحيين انسجامًا مع نهج المقاومة.**

ـ نعم. ولكنْ ما زلنا بعيدين جدّاً عن الحلّ النهائي.

*** أحدُ أعضاء «تيّار المجتمع المدنيّ» ولأنّه ترشّحَ للنّيابة، وتاليًا، عن طائفته، صار حُكْمًا خارج «التيّار»...**

ـ ... إنّه ناصر قنديل. لقد كان معنا فعلاً، ثم رأى أنّ هذا ليس محلّه. ونحن أيضًا رأيْنا أنّ هذا ليس محلّه.

*** أثمّة مانعٌ من ترشُّح أحد أفراد «التّيّار» للنّيابة؟**

ـ لا مانع ما لم يرشّحْ نَفْسَه على أساسٍ طائفي. لكنّ ذلك [الترشُّح] سيكون غباءً منه، ولو نجح! ذلك لأنّ برنامجه لاطائفيٌّ فعلاً، ولكنّه في هذه الحال لاواقعيّ أيضًا، لأنّه لن يتوصّل إلى شيءٍ وحده. فالأمر يحتاج إلى استراتيجية. المشاكل الاجتماعية المعقّدة لا تعالَج بحلولٍ جزئية.

*** هل الأولويةُ، إذًا، للقانون الانتخابي؟**

ـ بل تحديدًا لقانونٍ انتخابيٍّ يلغي كلَّ مَنْ يترشَّح إلاّ من قِبَلِ أحزابٍ لاطائفية.

*** أنت إذًا ضدّ قانون الانتخاب المركّب [طائفي ـ علماني]. لا تريد أن تترك شيئًا للطّوائف. أهذا طرحٌ واقعيّ؟!**

ـ لا، هذا طوباويٌّ جدّاً، ولكنْ ليس ميؤوسًا منه نهائيّاً. نبشِّر، قَدْرَ المستطاع، بالعلمانية. وكلّما قمنا بخطوةٍ سألنا نفسَنا: أما زلنا على المبادئ الأساسيّة، أيْ أما زلنا نعتبر الإنسانَ قيمةً مطلقة؟

*** هل تَعدّ خطواتٍ مثلَ إلغاءِ قانون الإعلام الطائفي، وإيصالِ عشرة نوّاب علمانيين، مجرّدَ مكاسب ملهية؟**

ـ ليس هذا هو الهدفَ النّهائي. الحصول على عددٍ من المقاعد في البرلمان مع **القبول بالموجود** لا يجدي نفعًا. كم نائبًا الآن في المعارضة؟

*** ولكنّ المعارضة ليست هي العلمانية.**

ـ صحيح. غير أنّ كثرةَ نوّابها لم تؤدِّ إلى نتيجة.

مستقبل العلمانية وصانعوه في لبنان

*** ماذا عن مؤتمر العلمانيين في لبنان الّذي عُقد في قصر اليونسكو، يومَي الخامس والسّادس من أيّار (مايو) ٢٠٠٦؟**

ـ وقعتْ أحداثٌ منعتْنا من متابعته. انبثقتْ منه أمانةٌ عامةٌ، لكنّها لم تتمكّن من الاجتماع بسبب الأحداث والواقع اللبناني. ومع ذلك لم نقطع الأمل.

*** ألا ترى أنّ هذا هو وقتُ العلمانية؟ ثمّة شريحةٌ كبيرةٌ من الشبّان لا تجد نفسَها في أيّ مكانٍ من التّركيبة الطائفية اللبنانية، ولذلك تتطلّع جدّيّاً إلى صوتٍ جديد.**

كلّ سلطة دينية هي غلطٌ كسلطة، ويجب ردُّها إلى الخدمة لأنّ المسيح قال: «لم آتِ لأُخدم بل لأَخدم»!

ـ نعم! هناك براعم... الخطأ عند اللبنانيين أنّ كلّ فردٍ يريد أن يكون هو البدايةَ والنهايةَ. لا أحد يَقْبل أن يكون جزءًا من المحاولة الطّالعة من قلب لبنان. المجّانية في «التّيّار» مهمّةٌ جداً. متى أَسّستَ تيّارًا جديدًا، ورأيتَ أنّ ضرورةَ وجوده هي الأهمّ، فلا بدّ من التنسيق ومن قبولك المجّانيةَ في تعاونك مع الآخرين. نَرْجِع إلى السؤال المحوري: أهو تيّارٌ من أجل الإنسان، أمْ من أجلِك **أنت** كشخصٍ لديه مصالحُ شخصية؟

*** ولكنْ، بعد كلّ حساب، يجب إخراجُ الطائفية من إطارها الطوباويّ أيضًا! فثمّة علمانيون أنانيون ومصلحيون، شأنَ كلّ فئات المجتمع. يمكن العلمانيةَ أن تَجْمع، على مستوى الأفراد، كلَّ الشّرور الموجودة في الطّائفية!**

ـ المطلوب حُكمٌ لاطائفيٌّ يتميّز حقّاً **بالمجّانية**؛ لا يَستعمل أحدٌ فيه الآخرين لتحقيق وصولِهِ هو. وما دام قد وُجِدَ في عصرنا عددٌ، ولو قليلٌ، من «الأنبياء» الذين يسعون إلى إيصال المجتمع بهذه الطريقة، فمن الممكن أن تؤْمنَ بأنّ لبنان قد يصل يومًا ما. جرّبنا أن نجمع الجمعيات اللاطائفية: ثمة ٤٣ جمعية، ولكلٍّ منها هدفٌ خاصّ!

*** أتقصد أنّنا يجب ألاّ نجرّب أصلاً؟**

ـ بل يمكن أن نجرّب، إذا كانت المبادئ ثابتةً. لا اسمَ [بارزًا] لغريغوار حدّاد في «تيّار المجتمع المدنيّ.» هذه هي المجّانية الّتي نحاول تطبيقَها. أنا مستشارٌ فقط [في التيّار المذكور]. يجب أن تجدَ صيغةً يكون فيها الإنسانُ إنسانًا. وهذا يتطلّب قدّيسًا... بلا مرجعٍ دينيٍّ طائفيّ.

*** والآن، ما هو طرحُ «تيّار المجتمع المدني» للوصول عمليّاً إلى العلمانية؟**

ـ صار لدينا شبّانٌ في الجامعات، هم نواةُ العلمانية هناك. وعندنا مثلهم في بعض الأقضية، كالمتن وكسروان والنّبطيّة... لكنّ الأحوال لا تَسمح لنا بأن نصل إلى هدفنا بسرعة. يجب أن نتعاون، أن نعيد تجميعَ اللاطائفيين، ومَنْ عندهم الصّفات التي ذكرتُ...

*** ما موقفك من التّمويل الأجنبي للجمعيات المدنية، وضِمنها ربّما الجمعياتُ العلمانية؟**

ـ كلُّ مصدر أجنبيٍّ للتّمويل مقبولٌ، ما عدا التّمويل الأميركي! نحن نسمّي المساعداتِ الأميركيّة US AIDS [الإيدز الأميركي]، ونقول إنّ على الدولار غلطةً مطبعيّة؛ فالمقصود ليس IN GOD WE TRUST [باللّهِ نؤْمن] بل IN GOLD WE TRUST [بالدولار نؤْمن]!

الدين والنصّ

*** حين يصل بنا الأمرُ إلى قانون الأحوال الشخصية، يتّضح أنّه لا حلّ إلاّ من خلال قانونٍ اختياري، ومن ثمّ يبدو التدرّجُ المرحلي معقّدًا جداً...**

ـ هذه نقطةٌ ضعيفةٌ في تفكيرنا. من الصّعب جداً أن تجد حلاً يَقْبل به الجميع.

*** لماذا؟**

ـ لأنّه إذا أردنا أن نحترمَ الدّينَ الإسلامي، فلا بدّ من احترام مبادئه. لا يمكنك أن تَمْنع رجلاً مسلمًا من أن يتزوّج أربعَ نساءٍ، لأنّ ذلك يعني أنّك تلغي جزءًا من الإيمان الإسلامي. جوازُ الاقتران بأربع نساء انتقاصٌ لحقوق المرأة، ولكنْ إذا أردتَ أن تحترم الدينَ الإسلامي فأنتَ مضطرٌّ إلى قبوله!

*** قانونُ الإعدام أيضًا مشكلة. حتّى المسيحية، وهي دين الرّحمة...**

ـ (مقاطعًا) المسيحية شيء، والمسيحيون شيءٌ آخر. المسيحية لم تَقْبل أبدًا بالإعدام، بينما المسيحيون...

*** ولكنْ هل المسيحيةُ بالنّسبة إليك نصٌّ فقط؟ أوَليست أيضًا سيرورةً تاريخيةً؟**

ـ يجب تجريدُ النّصّ من كلّ ما يَخْرج على أساسيّاته. حتّى في النصّ المسيحي، ثمّة أمورٌ تاريخية [أيْ تختصّ بظروف تاريخية

محدّدة]. مار بولس يقول: «الرّجل رأسُ المرأة.» هذا أمر تاريخيّ [لا مطلق]، وليس فيه احترامٌ للمرأة.

*** حتّى النّصّ يجب أن «نُفَلْتِرَهُ» إذنْ؟**

ـ هناك النّصّ، وهناك النّقل، النّصّ وتفسيره حسب بعض المبادئ. وهذا يفرض علينا انتقائيّةً لا مهرب منها.

*** دينُك إذًا ليس المسيحيةَ، بل الإنسان. ثمّة أمورٌ كثيرة في المسيحية لا تعجبك!**

ـ أنا مسيحيٌّ لأنّي لم أجد كلمةً قالها المسيحُ وفيها معاداةٌ للإنسان. على المرء أن يَقْبل بالانتقاد حتّى تتطوّر البشرية. يجب أن يظلّ الانتقادُ موجودًا حيال بعض المبادئ الّتي لا تتطوّر.

*** تقول إنّ الحُكْم يجب أن يلازمه الحوار. لكأنّ الأفكار يجب أن تُحَكَّ دائمًا بالواقع لنرى مدى ملاءمتها للإنسان والمجتمع...**

ـ ... على كتبي دائمًا هذا الوصف: «عناصر حوار».

*** أثمةَ دوْرٌ للسلطات الدينية في المجتمع المنشود؟**

ـ أبدًا! كلُّ سلطةٍ دينية هي غلطٌ كسلطة.

*** ماذا تعمل بالسّلطات الموجودة؟ أتلغيها؟**

ـ كلاّ! بل أردّها إلى الخدمة. فقد قال المسيح: «لم آتِ لأُخْدَمَ بل لأَخْدُمَ.»

*** وماذا عن السلطات الإسلامية؟**

ـ لا سلطةَ دينيةً في الإسلام أصلاً. وليس هناك رجالُ دين!

*** أوَلا يجعلكَ وضعُك الشّخصيُّ داخل الكنيسة جزءًا من السّلطة؟**

ـ لا! لا! حين تركتُ مطرانيةَ بيروت سنةَ ١٩٧٥، لم يعد لي أيُّ دورٍ في المؤسّسة الكنسيّة... فازددتُ تعمّقًا في **المسيحية الحقيقية**. هكذا كتبتُ: «تحرير المسيح والإنسان.» يجب أن نحرِّر المسيحيةَ من تاريخها المسيحي، من كلّ تفكيرٍ عن المسيح جاء بطريقةٍ اعتباطيةٍ أو نسبية. فالمسيح أفضلُ من كلِّ تعبيرٍ عنه في التاريخ، بما فيه كونُه رئيسَ قبيلةٍ طويلةٍ عريضةٍ اسمُها «المسيحية.» المسيح هو من أجل البشرية كلِّها بقيمه الإنسانية الكبرى.

*** ما رأيك في بعض الأطروحات عن «المجتمع المسيحي،» و«وحدة الصفّ الإسلامي،» إلخ...؟**

ـ رأيي أنّ في مثل هذه الأطروحات تناقضًا مبدئيّاً. «المجتمع» كلمة علمانية.

*** هل الوطنيةُ هي البديل؟**

ـ الوطنية صارت جزءًا من العولمة. هي أمرٌ موقّت. حين تقف إزاء الآخرين، يجب أن تقبل بنفسك كجزءٍ نسبيٍّ مع أجزاء أخرى... يجب الالتقاءُ معها بالحوار.

*** وشرطُ الحوار، عندك، أو شرطُ القبول بالآخر واحترامه، هو اعترافُكَ بأنّه قادرٌ على التّغيّر.**

ـ كذلك كان غاندي. العرف عندي أنّ الآخر ليس مجمَّدًا، بل قابلٌ للتّغيُّر والتغيير.

*** أنت تدعو إلى فصل التربية الدينية عن المؤسّسات التربوية. بينما هناك مؤسّساتٌ تربوية قائمةٌ على أساسٍ دعاويٍّ. كيف المطالبة عملياً بذلك، وكيف تنفيذه؟**

ـ أوّلاً، يجب أن نطلبَ أساتذةً علمانيين. يجب تدريبُهم على العلمنة، أيْ على القبول بالآخرين، وتعليم مبادئ الإنسان كقيمةٍ مطلقة. يمكن أن تعلّمهم أمثلةً روحانيةً لا دينيةً، لا تنتمي إلى المسيحية ولا إلى الإسلام. وهذا يتطلّب تمرينَ الأساتذة القادرينَ على التّعليم بهذا الشّكل.

بيروت

جاك الأسود وسماح إدريس

كاتبان من لبنان.